

النظرية بين طموح الموضوعية وعناصر الخضوع والارتباط في البحث اللغوي
The theory between the ambition of objectivity and the elements of
submission in the linguistic research

ربيعة قرواش *

Karouache Rabiaa

جامعة باجي مختار - عنابة -، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها (الجزائر)
Badji Mokhtar -Annaba- University, Faculty of letters & languages, Department
of language and Arabic Letters (Algeria)
rabiaa.karouache@univ-annaba.dz

تاريخ النشر: 2023/09/02	تاريخ القبول: 2023/03/28	تاريخ الإرسال: 2023/02/20
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

يركز البحث العلمي الحديث في العلوم الإنسانية والاجتماعية على بلوغ الموضوعية باتخاذ الوسائل والأساليب والمنهج العلمية، لتضاهي المنجز في العلوم الدقيقة والتجريبية، فمادتها أكثر زبئية وافلاتا من العين المخبرية.

وأمام هذا التحدي الذي رفعت شعاره هذه العلوم، نشأت عدة نظريات تتولى تفسير ظواهرها واستنباط قوانينها، وتركيب نظامها المقترض من قبل العلماء، ومن بينها النظريات اللسانية، ولكن يطرح بناء هذه النظريات إشكال خضوعها لمجموعة من العناصر؛ كالعينة والأهداف والمنهج والباحث وغيرها، مما يوهم بتقليص حظ الموضوعية الناشئ عن الخضوع، فما هي هذه العناصر؟ وما حدود إخضاعها للنظرية؟ وهل تؤثر في احتفاظ النظرية بموضوعيتها؟
الكلمات المفتاح : نظرية، موضوعية، خضوع، عينة البحث، ظاهرة، منهج.

Abstract :

the use of tools and scientific ways is the main basis for the recent scientific research in human and social sciences to match the performed exact and experimental works, whose objects are more loose and uncontrollable.

In the face of the challenge that its slogan raised by these sciences, several theories arose to explain their phenomena, educe their laws, and

* ربيعة قرواش: rabiaa.karouache@univ-annaba.dz

construct their system assumed by scientists. Among which, linguistic theories, whose construction pose a considerable concern to subject them to some elements, including research sample, objectives, method, researcher, and others. As a result, the created objectivity chance can be reduced. Conclusively, some questions can be raised: what are these elements? What are the limits of this subjection? Do they have an effect on the objectivity of the theory?

Keywords: Theory, Objectivity, Submission, Research sample, phenomenon, Method.



مقدمة:

يطمح العلم الحديث إلى الوصول إلى ما يسمى في فلسفة العلم؛ "الموضوعية"، وهي أمر يتكرر في كل حديث عن مفهوم العلم ومبادئه وأسس، وليست العلوم الإنسانية بمعزل عن هذا الطموح، بل صار ديدن أصحابها إلى درجة الغلو في مسالك طلبها.

وليس يخفى على أهل العلوم أن النظرية ركيزة أساسية في بناء العلوم الوضعية، وفي تطويرها، وتفسير الظواهر المدروسة، وهي لمكانتها وحظوتها في هيكلية العلم وتطويرة لا بد أن تكون خاضعة لمجموعة من العناصر التي ترتبط بها ارتباطا وثيقا، مما يجعل طموح "الموضوعية" شيئا يُربك علاقة هذه العناصر بمصادقية النظرية عند كثير من الدارسين المحدثين، وعند فئة أخرى أمرا حتميا وطبيعيا لا يفسد مبدأ الموضوعية في شيء. وعليه ما العناصر التي تخضع النظرية؟ وكيف يتم ذلك الخضوع؟ وهل يتعارض مع مبدأ الموضوعية التي تكرسها العلوم الحديثة؟

1- مفهوم النظرية:

- عُرِفَت الموضوعية بصيغ مختلفة لكنها تلتقي معظمها إن لم نقل كلها عند نقطتين أساسيتين:
- أولها أن أصلها فرضية أو مجموعة فروض أخضعت للاختبارات والتجارب حيث قيل:
 - "نظام مُشكل من الفرضيات والمعارف المحققة (المراجعة) والقوانين المنطقية."¹
 - "أصل النظرية فرضية أجريت عليها اختبارات وتجارب فأصبحت نظرية."²
 - "فرض علمي يمثل الحالة الراهنة للعلم."³
- وثانيها أنها تصور يفسر الظواهر المدروسة، من ذلك:

- "النظرية هي تفسير مؤقت لمجموعة من الظواهر الواقعية، وتتدرج من حيث الشمولية من تفسير عدد قليل من الظواهر إلى تفسير عدد كبير من الظواهر، بعبارة أخرى؛ هي صياغة مؤقتة لقانون طبيعي محتمل لم تصل إلى مرحلة الاستقرار."⁴
 - "الإطار التصوري الملائم لتفسير الظواهر والمواضيع لتصبح مفهومة من خلال هذا الإطار والتوجيه النظري."⁵
- يدرك الناظر في هذه التعريفات، وفي تعريفات أخرى تُساق المساق نفسه، أن أصل النظرية فرضية بحسب مبادئ العلم الحديث⁶ خضعت للاختبار والتجربة ثم ارتقت إلى مرتبة النظرية بعدما تمّ تأكيدها ولو مؤقتا، كما أنها في الوقت نفسه تفسير مُتصور من قبل العلماء وفق ما وصل إليه إدراكهم وتراكمات العلم التي تكونت في وعيهم، فنتج عنها مفهومات علمية تعبر عن معطيات الواقع⁷، التي منها تصدر التفسيرات والتصورات.

لا يختلف أهل العلم في أن النظرية تصور، أي أنها استنتاج للنظام الذي يحكم الظواهر، وتفسير لحركة العناصر داخلها، فالنظرية تبدأ بالفرض وتنتهي بالتفسير، وهي في أثناء تطورها على هذا النحو، يسهم في تكوينها مجموعة من العناصر، وهي:

- عينة البحث بما فيها من الظواهر اللغوية المختلفة.
 - منهج البحث والأهداف التي عينها أصحاب النظرية.
 - فكر الباحث وثقافته واتجاهه (الباحث نفسه).
 - الفرضية التي انطلقت منها.
- وكل عنصر من هذه العناصر يمثل عنصر خضوع للنظرية.

2- عناصر خضوع النظرية:

إن توجهي إلى البحث في مسألة الخضوع ناتج عن مبدأ عام يمكن أن تصور به علاقات كثير من الأشياء، فلا شك أن ارتباط مجموعة من العناصر ينشأ عنه تأثير عنصر بعنصر آخر، وهذا التأثير يؤدي إلى الخضوع، ومسيرة ما يمليه العنصر أ- على العنصر ب-، سواء أكان هذا الخضوع (التأثر) جزئيا أم كليا، وتقصد بعناصر الخضوع؛ الأشياء التي تخضع لها النظرية وتشكل عنصرا مهما في بنائها.

ونري بمسألة الخضوع ذاتها كل ما من شأنه أن يكون مؤثرا مباشرا أم غير مباشر في البناء، فإن انعدم أو غاب انعدمت، وإن ظهر غير مسارها، أو عدّلها، أو كان منطلقا فعليا في تكوين تصوراتها، وإيضاح ذلك نبين كيف يحصل خضوع النظرية لكل واحد من تلك العناصر.

أ- عينة البحث:

العينة مجموعة من المواد اللغوية التي يختارها الباحث (ينقيها) بناء على أهداف وفرضيات معينة، وهي "تطبيق للمبدأ القائل: إن جزء الشيء يحمل صفات الشيء في جوهره."⁸

تهدف النظرية في المجال اللغوي (اللساني) إلى الكشف عن النظام الذي يحكم الظواهر اللغوية، وللوصول إلى ذلك كان لزاما على الباحث (العالم) أن ينطلق من مادة لغوية مقتطعة من الواقع الاستعمالي الحي، وأن لا تكون افتراضية لتكتسي فعلا مصداقية البحث، وتثمر النتائج المرجوة، وتكون أكثر سلامة وموضوعية، ومقبولة علميا وموضوعيا.

ومنه نقصد حقيقة بعينة البحث تلك المادة اللغوية التي تمثل جزءا من الاستعمال اللغوي الحي القابل للملاحظة والدراسة، وإذا كانت النظرية تنطلق من المادة، فهذا يعني أن ما تقدمه المادة للنظرية هو الذي سيحكم مسارها، ولكن كيف يتم ذلك؟

نفرض عملية انتقاء المادة اللغوية، وما ينجم عنها، وما يتعلق بها من عمليات أخرى؛ كالتحديد الزماني والمكاني، وجمهور الناطقين، والاحتياطات المنهجية التي يتوخاها العالم (الباحث) تصورا معينا للظاهرة اللغوية، لتصبح المادة في حد ذاتها مغلقة بشكل أو بآخر على أنماط لغوية معينة، فإذا وسعت المادة وزاد حجمها لضرورات خاصة كانت؛ إما مؤكدة لما وصلت إليه النظرية من نتائج، وإما محاولة لمسارها بتعديل القوانين، أو جعلها أكثر تحديدا، أو بإضافة ظروف سياقية أخرى للظواهر اللغوية مما يتعين على الباحث أن يأخذها مجددا في الحسبان.

ما يدعم قولنا السابق اختيار العالم لفرضه بالرجوع إلى العينة حيث "يعود مجددا إلى عالم الواقع والوقائع، ليختبر الفرض، ويحدد مسيره ومصيره"⁹، وليس هذا إلا دليل على أثر العينة أو المادة اللغوية في نتائج النظرية وتفسيراتها.

ولقد نتصور أن النظرية بمجرد انتهائها ينتهي عمل الباحث، بل إن كل جديد في مادته اللغوية لابد أن يستجيب له بتعديل نظريته، ولهذا كثيرا ما نعتقد أن نظريتين منبثقتين من رحم واحد هما اثنتان، ولكنهما في الحقيقة واحدة ما لم يتغير مسارها نهائيا، لأن العمل الذي قام به العالم الثاني ما هو إلا تكملة لعمل الأول واستجابة لمعطيات جديدة.

تحتاج النظرية المتكاملة إلى إحاطة العالم (الباحث) بالمادة (العينة) وبتواهرها كي يستطيع تفسيرها جميعا "فقد تقوم النظرية أحيانا بشرح جزء من الأدلة، ولكنها تفشل في شرح الأجزاء الأخرى، ومثل هذه النظرية يجب اعتبارها غير مكتملة من غير شك. وعلى العموم، فلا يمكن اعتبار أي نظرية في أي مجال من مجالات المعرفة كظرفية نهائية وكافية وشاملة... إلا إذا كانت هذه النظرية قادرة على تفسير وشرح جميع البيانات والحقائق التي تمت ملاحظتها."¹⁰

والأكيد أن الإحاطة من طرف شخص واحد بكل تفاصيل الظواهر يكاد يكون مستحيلا، فإذا من واجبه أن يستعين بنتائج غيره إن صح الوصول إليها، وسلمت من الخطأ والدجل، ولم يكن جاحدا لفضل من أحمده نفسه في تتبعها.

ب- الظاهرة:

الظاهرة هي الشيء القابل للملاحظة والخضوع للتجربة، فهي "ما يمكن إدراكه أو الشعور به، وما يعرف عن طريق الملاحظة والتجربة، والظواهر طبيعية ونفسية واجتماعية..."¹¹ وحتى اللغوية منها فإنها قابلة للملاحظة والتجربة والاختبار والتقنين والتفسير.

وكما هو معلوم فإن الظاهرة جزء من العينة، ولكن المقصود فعلا بالدراسة هي الظواهر المطردة، وهذا ينطبق على كل المجالات العلمية؛ لأن البحث في الطفرات أمر صعب بل نادر، ولهذا يمكن للباحث أن تعترض طريق بحثه، ولكنها في الأصل غير مقصودة لأنها نادرة الحصول، والأمر كذلك في البحث اللغوي، فالظاهرة الشاذة لا يمكن دراستها إلا بعد دراسة المطرد منها، يمكننا أن نتخيل المادة اللغوية على أساس أنها شبكة من الظواهر اللغوية المتداخلة لشكل نظامي متجانس أفقيا وعموديا، وليس يعيننا عند حديثنا عن الظاهرة اللغوية حجمها بالضرورة إنما المهم ما يحكمها من قوانين، فقد تكون قليلة ولكنها مع ذلك تخضع لقانون كغيرها من الظواهر.

في هذه الحال فإن إهمال أي ظاهرة من الظواهر اللغوية يمكن أن يؤثر سلبا على بناء النظرية؛ لأنها ستبقى في حال دائم من الاضطراب والتعديل، ولهذا تؤثر الظواهر بشكل مباشر على النظرية لأنها موضوع الدراسة.

فالباحث يقول: ماذا لدي؟ أي؛ يبحث فيما هو كائن، موجود بين يديه؛ شكله، عناصره، مادته، علاقاته مع غيره، وجوهره (حالاته)...

إن كل اكتشاف يحصل عليه من الظاهرة هو الذي يعينه على بناء تصوره للنظام اللغوي، كلما اكتشف الباحث شيئا من الظاهرة، تكامل تصوره ونضج شيئا فشيئا، وكان أكثر ملاءمة في اتخاذ قراره في صياغة القانون أو النظرية، لقد ظهر في الفيزياء "بازدهار التجارب في فيزياء الجسيمات [...] طاقة كبيرة من جسيمات أصغر من الذرة، وشبكة مذهلة من القوى، فتبين أن الفيزياء أعقد بكثير مما كان يتوهم رجال العلم في عشرينات [القرن الماضي]"¹²، كذلك الأمر في مجال اللسانيات، فنحن بإزاء تنقيب جديد في المادة، بل في المواد اللغوية، ونظرة أعمق في الظاهرة، تُجبر العالم على تغيير كثير من تصوراتته.

يمكننا أيضا أن نعدّ الظاهرة أداة في اكتشاف النظام اللغوي في الوقت الذي نعدّها موضوعَ دراسةٍ، لأن النظام لا يشتغل بمعزل عن العناصر اللغوية التي تُشكّل في صورة ظاهرة لغوية، وعليه فكل ظاهرة جديدة تعني أمرا جديدا في بناء النظرية.

ت- المنهج وأهداف النظرية:

يُنظر إلى المنهج العلمي على أنه "في جوهره آلية إيجابية فعالة لتعامل الإنسان مع وقائع عالمه، تقوم على التآزر والتحاوّر بين قدرات الذهن ومعطيات الحواس، وهذه آلية كامنّة في كل عقل بشري، وتبلغ أقصاها في البحث العلمي"¹³.

لا جرم أن المنهج العلمي وسيلة في فهم معطيات الواقع المارة عبر الحواس، وتسييرها يتم بما يملكه العقل من قدرات؛ كالاستقراء والاستنتاج والمقارنة... وغيرها، ولكن هذه الوسيلة تُقيد بمجموعة من القواعد حتى قيل عن المنهج ذاته "يعني مجموعة من القواعد التي يتم وضعها بقصد الوصول إلى الحقيقة في العلم."¹⁴ إننا نرى الأشياء في الواقع بعيون المناهج، أو المنهج الذي نتبعه، فصورة الأشياء لا نراها كما هي في عالم الحواس بل كما يعكسها لنا المنهج، وأخص الحديث في هذا المقام العلوم الإنسانية، ولهذا يحدث الاختلاف في صورة الحقيقة المستنبطة كلما اختلف المنهج الذي نتبعه، فصورة الظاهرة اللغوية وفقا للمنهج المقارن تختلف عن صورتها وفقا للمنهج التاريخي، وصورتها وفقا للمنهج الوصفي تختلف عن صورتها إذا اعتمدنا المنهج المعياري،... لأن كل منهج منها يكرس مجموعة من الأهداف والقوانين والمبادئ والإجراءات والمرجعيات المعرفية...

فهل هذا الصنيع الإنساني الذي ولّد في كثير من الأحيان باختلافه القطيعة بين مجد تليد من الدراسات ومجد وليد من المعرفة الإنسانية (في الوقت الذي يجب أن يضبط فكر الإنسان ويوجهه) يرثخ مبدأ الموضوعية أم يضعف حظوظها؟ لست أبالغ عندما أقول: إن الموضوعية مطلب العلوم الإنسانية لكنها لم تبلغ بعد الدرجة التي يمكن الاطمئنان عندها، ولذلك يبقى المنهج محل نقد وتصحيح وتعديل، مع أنه هو في حد ذاته يقوم بهذا العمل ويمارسه ويطبقه على مواد العلم، إننا حقا بحاجة إلى مناهج موضوعية بالمعنى السليم لها، فإذا كان للمنهج خطورته على بناء النظريات، فكذلك للمنهج السليم أثره الإيجابي عليها، "ينتهي جاستون باشلار (Gaston Bachelard) إلى أن المنهج العلمي يتكرر دائما لما ينجزه، من حيث دأبه على اختياره ونقده وتصويبه وتنقيحه، العلم لا يخرج من الجهل لأن الجهل ليس له بنية، العلم يخرج من التصحيحات المستمرة للبناء المعرفي السابق..."¹⁵

بما أن المنهج وسيلة الكشف التي يعتمد عليها الباحث، فلا بد أن يكون لكل منهج إجراءاته العامة التي يشترك فيها مع المناهج الأخرى، "توجد صورة عامة للمنهج العلمي بخطوات قد لا يشترط فيها التتابع دائما، وهذه الخطوات هي: الملاحظة، التجربة، الفرضية، القانون، النظرية"¹⁶، إلى جانب إجراءاته الخاصة التي ينفرد بها عن غيره، فلو أننا اتبعنا المنهج أ- في دراستنا للظاهرة اللغوية، ثم بعد فترة اكتشفنا منهجا جديدا ب- فأعدنا الدراسة باستعماله، ففي هذه الحالة -مع وثوق سلامة المنهجين- فسنحصل على نتائج بنوعين:

- 1- جملة منها متفق عليها في الدراساتتين.
- 2- وجملة فيها زيادة، مما يعني أن زيادة إجراء أو تغييره يعطي نتائج إضافية، ومنه تفسير إضافي تبنى عليه النظرية.

تحديد أهداف الدراسة قبل بدء صياغة النظرية مطلب هام وضروري لا بد منه؛ لأن التصورات النهائية التي تصل إليها النظرية فيما بعد هي استجابة لذلك المطلب.

عندما تتغير الأهداف تتغير الرؤى، ويتغير معها المنهج، ومقلوب ذلك، إذا تغيرت الرؤى تتغير الأهداف، ولو نظرنا في تاريخ اللسانيات لألفيناها سلسلة من التغيرات، كلما تقدمت خطوة لاح لأصحابها أهداف جديدة يتغير على إثرها نوع الدراسة، وكذلك المنهج المتبع.

لقد تطورت اللسانيات من المقارنة إلى التاريخية وأخيرا إلى الوصفية، بعدما كان الهدف "مقارنة القواعد بعضها ببعض بغية إثبات القرابة بين اللغات"¹⁷، إضافة إلى أهداف أخرى تختص بها الأفراد داخل البحث، فأصبحت اللسانيات تعطى للمشروع التاريخي والمعياري، لا رفضا لها، وترسيخا للمشروع الآني لتجد نفسها أخيرا تراوح بين مبادئ المعيارية والآنية من جديد، وبسبب تأثير المنهج والأهداف الجديدة للسانيات لم تعد اللغة مطلوبة في شكلها الخارجي بقدر ما هي مطلوبة في شكلها الداخلي، هذا ما يعبر عنه اللسانيون بدراسة اللغة لأناتها ولأجل ذاتها، فهل سيصمد هذا المبدأ طويلا أمام التفاعلات الجديدة لعناصر خضوع النظرية، وعلى رأسها المنهج والأهداف؟ نحن لا نعلم ماذا يوجد في المستقبل، ولكن مجموع المعطيات، وأحداث التاريخ المتكررة، يمكن أن تبنى بملاحمة في حقول كثيرة.

ث- الفرضية:

يقصد بالفرضية "التفسير العلمي المؤقت للظاهرة [...]" والفرض العلمي هو عبارة عن وضع علة، تكون الظواهر أو الأشياء الملاحظة، أو موضوع التجربة معلولة لها وأثر من آثارها"¹⁸، وعلى اعتبار أنها تفسير مؤقت فهي تفسير احتمالي، وعليه فالفرضية عبارة عن تصور مبدئي، أو تعليل مؤقت للظاهرة، قابل للتعديل كما أنه قابل للدحض.

يبدو أن البحث في اعتماد الفرضية يضع منطلقا يبدأ به، وفي الوقت نفسه يحدد تصورات له ولو مؤقتا، ويوجهها توجيهها عليه الفرضية؛ لأنه من غير المعقول أن ينطلق الباحث من العدم ليصل إلى تكوين فكري أكثر تعقيدا، وبهذا تكون النظرية خاضعة للفرض العلمي بشكل يجعلها لا تخطو خطوة إلا الرجوع إليه، مما يجعلنا نتعرف على الظواهر وعلاقاتها بالاحتكام إليه حتى يُثبت عكسه، ولا ينبغي أن نعتقد أن الفرض العلمي مجرد تخمين ساذج يُعثر عليه الإنسان بمجرد النظر إلى الأشياء، فهذا ليس من فعل العامة، بل هو تخمين واع ومنظم ناتج عن تفكير معمق، وخبرة صادقة بالظواهر، فليس للعالم أو الباحث أن يغامر للركض وراء فرضية كي يختبرها لأنها مجرد فكرة تُبرر الظاهرة بل لأنها ملكة عقله وجردت ملاحظاته، ولم يجد في حدود علمه وقناعاته بديلا لها في حينها، فهي كالقشة التي يتمسك بها لعلها تجعله يمسك بطرف خيط الحقيقة وإن خالفت فرضيته فيما بعد، ولهذا "يقوم الفرض بمهمته، وهو غفل من الاسم والعنوان، ويظل كذلك حتى يعتمد بالتحقيق والإثبات، فيصير قانونا أو نظرية ويسمى بها"¹⁹، فكثيرا ما تعرّف النظرية على أنها فرض محقق. من الخطأ أن ننساق وراء فرضية علمية وليس لدينا أساس علمي نهتدي به، فمجرد الشعور بصدق ما نخمن به لن يكون كافيا إلا إذا أيدته مجموعة من الوقائع التي مرت بنا سلفا، ولا مجرد صدفة، وإن كانت الصدفة في بعض المرات تصدق فيما بعد، ومع ذلك يمكن أن ننصرف إلى غيرها في مرحلة من مراحل الإنجاز

العلمي لعدم توفر الوسائل اللازمة، أو لعدم نضج حدسنا، وكما قال أحد الباحثين: "ليس العلم بناء مشيدا من حقائق قاطعة، بل هو نسق من فروض ناجحة، كل يوم فروض أنجح من سابقتها؛ أجدر وأقدر على الوصف والتفسير، والتنبؤ والسيطرة..."²⁰، ما نفهمه من هذا القول أن نجاح الفرض لا يعني دائما قطعية الحقيقة التي يصل إليها الباحث، لاعتبارات كثيرة، فكل فرض جديد هو تصوّر جديد تتعدد عليه النظرية.

ج- فكر الباحث وثقافته واتجاهه:

تبقى الأحداث والوقائع صامتة في واقع الإحساس حتى تجد من يقوم على وصفها، والذي يُعدّ بحق إحساسا بالظاهرة المدروسة، وتفاعلا مع المعطيات التي تقدمها له بدقة الوصف وحسن التصنيف، وسلامة ربط الحقائق، بل إن الباحث (العالم)، إن كان مُفَرَّغا من أي ثقافة أو فكر، أو اعتقاد، لن يكون دائما قادرا على تحويل ما بين يديه إلى تفسيرات تشبع حاجات العلم ومتطلباته، ولعل أكبر ما يمكن أن نستدل به في هذا الوضع اختلاف نتائج العلم التي توصل إليها الإنسان في فترات مختلفة، وذلك لاختلاف قناعاته، وتطور اعتقاداته، بل لانعكاس ما يؤمن به على التحليلات والتفسيرات التي يقدمها للظواهر والأنظمة التي يشتمل عليها، فالمهم في الأمر هو سلامة ما يؤمن به ويعتقده، وصحة ما ينطلق منه.

وليس هذا الذي قدمناه فحسب ذلك أن القدرات التي يملكها والاستعدادات التي تهيأت له من جملة محفزات البحث ومنشطاته، "وعلى أي حال التفسير عملية فكرية تتأثر بقدرات الباحث، واستعداداته، ولهذا يختلف المفسرون فيما يفسرون أحيانا باختلاف ثقافتهم، ومهاراتهم، وفطنتهم، ودرجة إلمامهم بالموضوع الذي يخضعونه للتفسير. ومع أن التفسير وفق المعلومات، إلا أنه استنتاجي نتيجة تأثره بالقدرات العقلية للإنسان الباحث، وما أنه استنتاجي إذن، قد يكون صائبا وقد لا يكون"²¹، ولو تعلّق الأمر بالرياضيات والفيزياء لا بالعلوم الإنسانية والاجتماعية فحسب.

لقد تحول الفكر الإنساني من مجرد التنظير الميتافيزيقي -وفق التصورات الغريبة- للأشياء إلى إحاطتها بالتجربة وإخضاعها للواقع الحسي، ولا يمنع الباحث إن سار هذا المسار أن تتدخل مُخِيلَتُهُ فقد قيل: "بدون الخيال لا إبداع علمي، ولن تكون المحصلة أكثر من بيانات إحصائية"²²، ولعل الخيال المقصود في هذا الكلام لا يعني خيال الفن، وإنما ما يصنعه العلم بتركيبه للمعطيات للحصول على مركب يستسيغه العقل، ويتوافق مع طبيعة العناصر المركب منها لمحاولة فهم الظواهر التي تدركها حواسه ولكنه مجهل سيرورتها وكيفية تكوينها.

عبارة أخرى؛ يأتي دور العقل في فهم الأشياء، بعد أن عاينها الباحث بيده، وعينه، وأذنه، ولسانه، وأنفه؛ كلّ حسب تخصصه والمجال العلمي الذي يبحث فيه، هذا العقل الذي تغذيه مرجعياته التي ينطلق منها، أو عقائده وثقافته التي يؤمن بها، ويحاول أن يسقطها على عمله، وكثيرا ما ينجح في ذلك فيكتب لعمله الاستقرار عهودا بعد عهود، أو يكون النجاح مسألة وقت فقط، يخبو لمعائنه وبريقه بعد زمنٍ لضعف المستند.

ألا يمكننا أن ننظر إلى العلوم الحديثة خاصة على أنها تنطلق من تصورات ترسمها لها الفلسفات التي تظهر من قرن إلى قرن؟ فعلا ليس لذي لب أن ينكر ذلك، ولكننا نعلم سلفا أن كل فلسفة من تلك الفلسفات لا تعدو إلا أن تكون مجرد نظرة إلى الحياة وإلى الوجود، سرعان ما تتغير بنظرة أخرى، لتترك آثارها على النظريات التي يصنعونها ويصوغونها، فهذه في الاقتصاد، وتلك في علم النفس والأخرى في علم التربية وهكذا دواليك، ففي الاقتصاد على سبيل المثال فقد "عزف الفقه الاقتصادي مجموعة من النظريات المبررة لسعر الفائدة، لكن تحليلها أبرز قيامها على مفاهيم خاطئة من وجهة النظر الاقتصادية والحقوقية، وتمثل في نظرية المخاطر، نظرية الزمن"²³، وفي علم النفس نظرية تناقلها حتى العامة من الناس وصدقها الباحثون، هي أنه كلما كبر حجم الدماغ امتلك معرفة وذكاء أكثر، وفي علم التربية ما يسمى بالنظريات الروحية، والنظريات الشخصية.²⁴

لا شك أن كل باحث يتغير معتقده أو قناعاته أو نظريته إلى الحياة يتغير معها كثير من المواقف والنتائج، بل إنه يصبح بتوجه وبعد فترة من عمره، بمسعى معتنقا لقناعات أخرى وذلك لتأثره بثقافات معينة ومناهج جديدة، فيقدم علينا بنتائج غير التي كان ينادي بها، فيحاول تصنيف عالمه من جديد وفق منهجه الذي ارتضاه بعد زمن.

لا بد أن نعلم أن الباحث لا ينظر إلى ما تحت حواسه نظرة مطابقة، بل إنه ينقلها إلى مستوى التجريد الذي يعتمد فيه على ما يضمه العقل من تفسيرات، "فلا بد من توافر درجة من التجريد والعزل لبعض المعطيات عن سياقها الأصلي، وإعادة دمجها وربطها لمعطيات أخرى في سياق أصلي آخر"²⁵، وباعتبار مواز؛ إضفاء معنى جديد مستنبط على الوقائع الحقيقية الساذجة، وليس كل ما هو مستنبط صحيح بالضرورة. هناك قدر مشترك مع باقي الباحثين في الملاحظة والتصنيف والمنهج عموما، ولكن تبقى بعض الفوارق هي الحاسمة أحيانا، فانتقال الباحث من مجال الرياضيات أو الفيزياء أو العلوم الطبيعية إلى مجال العلوم الإنسانية؛ كاللسانيات مثلا أو علم النفس، أو علم الاجتماع، يضيف أثرا واضحا لهذه العلوم أو الثقافات على تحليلات الباحث وتفسيراته للظواهر، وعلى بناء تصوراتها؛ لأن العقل بطبيعته يميل إلى التعميم أو الإسقاط.

لا أستبعد في هذا الواقع أن نسمع مستقبلا بنظرية في اللسانيات باسم: نظرية القوى الفاتكة في تحليل الخطاب، أو لنقل نظرية الشمولية الكمومية في أنموذجية الخطاب، أو أي عنوان آخر يمكن أن يلقي بظلال أحدث نظرية في الفيزياء يطلقون عليها: نظرية الأوتار الفاتكة التي قال عنها أحد الباحثين: "لا يوجد دليل علمي وعملي يثبت صحتها، وفي نفس الوقت لا يوجد دليل علمي وعملي ينقض أو يرد هذه النظرية."²⁶ هذا ما أتصوره إزاء البحث اللساني الذي لم يعد تحده حدود منيعة تجعله يحتفظ بخصوصياته كعلم للغة البشرية، وإذا كانت هذه النظريات مجرد تصورات مبنية على الرؤى، فكذلك موقفي مجرد تصورات تحتفظ بكثير من التفاؤل في تصحيح مسارات فكرية كثيرة.

3- طموح الموضوعية وعناصر خضوع النظرية:

بعد تعرفنا على العناصر التي يمكن أن تخضع لها النظرية، ننتقل إلى السؤال التالي:

هل في ذلك الخضوع محمّدة أم مذمّمة؟ وهل يتعارض مع مبدأ الموضوعية؟ إن الاستجابة للحدس الناضج الذي لا يملكه إلا العلماء المبني على خبرات سابقة وتصورات أمينة للفطرة الإنسانية والواقع، لا يمكنه أن يشكل خطراً على البحث العلمي طالما ارتفع عن سذاجة عُرض الناس (عامتهم) وحدسهم المؤقت.

فأما الخضوع للظاهرة وللمادة المستقاة منها في محل الدراسة فهذا أمر طبيعي؛ لأننا ننطلق في ملاحظتنا واستقراءنا ووصفنا من الظواهر اللغوية ذاتها التي ندرسها ولا سبيل إلا بالنظر إليها وتبّعها، فلا ريب أن المادة والظاهرة هي التي تملي علينا وقائع، وما على الباحث إلا أن يتلقفها كما هي عليه بصفتها مجموعة من المعطيات ليلبّس ما يسمى بالوقائع العلمية "فئة فارق بين المعطيات أو الوقائع الغفل، وبين الوقائع العلمية، فالأولى توجد مختلطة بغيرها منسحقة في خضم من التفاصيل، وليس لها من دلالة خارج هذا الخضم، أما الثانية فهي ما يولّيهما رجل العلم اهتمامه، ويعزلها عن غيرها، ويصّلها بما يختاره من سياق خاص، ويضفي عليها استقلالاً وموضوعية بحيث يمكن أن يدركها معه غيره."²⁷

وعليه يكون الخضوع المحمود ذلك الخضوع الإيجابي المعتمد على صدق الباحث الذي يترجم به حدسه وتصوراته، مع سلامة الفكر وخلوه من الخرافة والدجل والتقليد السلبي الذي يستمر معه الخطأ إن لم يظفر بالتحقيق والتثبت.

فهل تعني الموضوعية العلمية الحياد؟ وهل تعني كذلك تجرد الباحث من كل ما يؤمن به ليكون فرداً غفلاً من أي مرجعية ثقافية أو دينية أو معطى فردي يميزه عن أقرانه؟

إن الحياد صفة لا معنى لها إن كان الباحث يعزل ظواهره التي يقيم عليها دراسته عن سياقاتها الفكرية التي تناسبها داخل المجموعة التي ينتمي إليها، مع التأكيد على المبادئ التي سلف ذكرها، والتي تلخصها في صدق ما تؤمن به المجموعة.

فأكثر ما يمكن أن يفسر لنا الحالات السلبية لمبدأ الحياد، هو ما كان ضده، فلو تصورنا الهنود أو العرب أو غيرهم قد نظروا إلى ألسنتهم نظرة حياد كما تنظر إليها اللسانيات الحديثة، فلا نعتقد أن تلك الأمم كانت ستبدع في إنجازاتها لو لم تنظر إلى لغاتها نظرة تفضيل وتبجيل، بل كان ذلك دافعاً مهماً في نهوضهم، فضلاً عن أنها اختصرت الطريق الشاق والطويل جداً على اللسانيات الحديثة حتى تصل إلى ما وصلت إليه، وإن كانت الطريق ما تزال ممتدة لا تعرف نهاية ولا تستقر على يقين يضاهي إنجاز الشعوب في دراسة ألسنتها.

ولو أن العربي نظر إلى الظواهر اللغوية النظرة ذاتها من الحياد لاستوى عنده الفصح ودونه من سقيم اللغة والزعم في ذلك أن كلها من اللغة ومن الاستعمال، ولكن لحدس اللغوي والنحوي وثقافتها ومرجعياتها المعرفية والعقدية دورها في بلورة التصورات التي يقوم عليها علم العربية.

من جانب آخر تخضع النظرية للمنهج الذي يقود إلى بنائها، ولكن الخضوع السلبي الذي يُفشل مشروع العلوم في بلوغ غاية الموضوعية يكمن في التمسك بمنهج أثبت عدم كفايته أو فشله في تحقيق النتائج، أو مخالفة فطرة الإنسان وجبلته، كما أن المنهج الذي لا يسعى به صاحبه إلى تطويره تحت ظل النظرية لن يقدم دفعا حيويا لها، فالنظرية تتطور بفضل المنهج وتحت ظله، والمنهج يتطور بفضل النظرية وتحت ظلها، لقد لاحظنا في مدارس لسانية مختلفة تطور المنهج الوصفي تحت جناح كل نظرية من نظرياتها بغض النظر عن عمر كل نظرية، ومتانة أسسها.

لا تتذكر صورة الموضوعية الحققة للأهداف التي تنطلق منها النظرية، أو العلم عامة، فالأهداف السامية ترفع من شأن النظرية، والأهداف الباطلة إن لم تند النظرية في مدها فإنها تدمر طموح الموضوعية، وكما يقال: "إن البحث أمر يتطلب الإرادة، وقوة الإرادة في أن يسيطر المرء على نفسه، ويروضها ويرتفع بها عن مستوى الانتقام أو المغالطة، أو النفاق، أو التهريج... والكسب الحرام"²⁸، هذه هي الحقيقة التي يجب أن يدركها كل باحث مهما كان المجال العلمي الذي ينتمي إليه.

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة يمكنني أن أجمل النتائج فيما يلي:

- تمثل المادة السيدة في البحث اللغوي وغير اللغوي، سواء أكانت مادة مادية، وهي أكثر اعتادا في البحوث، أم مادة نظرية، كما أنها الشيء الذي يقع بين يدي الباحث يقبله كيفما يريد بالوسائل المتوفرة عنده كي يستنتج ما فيها من وقائع، ولكنها في الوقت نفسه تفرض أسرارها النظامية على النظرية.
- كل اكتشاف جديد لما في العينة يؤثر على صياغة القوانين والتفسيرات.
- كل منهج هو بمثابة منظار نتعرف به على الظواهر في إطار تلك النظامية.
- ليس شيء يوصل إلى حقيقتها غير الأسلوب الذي يتبعه الباحث، بينما الذي يُسَيِّر البيانات (المعلومات) الحاصلة من العلاقات الواقعة بين المادة والمنهج والقانون والتفسير، وغيرها هي شخصية الباحث ومرجعياته واستعداداته وطموحاته؛ لأن الربط بين كل تلك العناصر يحتاج إلى عقل وتفكير وتصور، ووعي يرفع المادة من مستوى الإحساس والشعور بظواهرها إلى مستوى التعميم والتجريد وإعادة سلم الحقائق.
- ومنه نستنتج بعدما قدمته أن كل تلك العناصر الخُضعة للنظرية، وما يلحقها من الروابط لا يمنع من تحقيق الموضوعية في بناء النظرية، لقد أثبتت التجربة أن مجموع ذلك ملهم للباحث حتى يصل إلى نتيجة أفضل، ولكن الشيء الحقيقي الذي يفسد الموضوعية ويشوهها يكمن في:
- الطموح غير المشروع الذي يُثَبِّتي على استعلاء النظرية وغموضها.
- اتخاذ وسائل لا تناسب المادة ولا متعلقاتها.

- إخضاع النظرية لقوى سياسية أو اقتصادية، أو قومية بقصد الهيمنة، وفرض النفوذ...
- تبلغ النظرية حد الموضوعية فعلا إذا تحققت فيها:
- الصدق في التصور والتحليل والاستنتاج وصياغة التفسيرات والنزاهة لا بالتزام الحياد وتجريد الباحث من مقومات هويته وتفكيره وانغلاق العينة على نفسها.
- إن مبدأ الخضوع الذي انطلقنا منه لتقرير العلاقة بين عناصر النظرية والنظرية ذاتها، لا يفسد طموح العلم في بلوغ الموضوعية، ولكن الذي يربك فعلا تلك العناصر بمصادقية النظرية هو:
- سوء تصوير مفهوم الموضوعية.
- سوء توظيف ذلك الخضوع للتحايل على العلم.
- عدم الإحاطة بالمادة وظواهرها، والاكتفاء بما يقدمه بعضها.
- اعتماد الباحث على نفسه فحسب.
- الاعتقاد بأن الظاهرة موضوع الدراسة دون تقويم دورها كوسيلة (أداة) في اكتشاف النظام.
- الاعتقاد بأن كل منهج جديد أصلح من سابقه دون النظر بأنه لابد أن يبقى محل نقد وتصحيح وتعديل.
- الانقياد وراء الفرضيات دون أساس علمي.

هوامش:

¹ - «Système formé d'hypothèses, de connaissances vérifiées, et de règles logiques » (voir: Françoise Gérardin, Annick Dehais et autres: Le robert, dictionnaire pratique de la langue Française, (2006), France loisirs (Paris), p1665

² - ماثيو جيدير: منهجية البحث، ترجمة ملكة أبيض، (2021/05/23)، تاريخ الاقتباس: 22:10 06/08/2022 <https://archive.org/details/02129-pdf/mode/2up>

³ - "فرض علمي يمثل الحالة الراهنة للعلم، ويشير إلى النتيجة التي تنتهي عندها جهود العلماء أجمعين من حقبة معينة من الزمان" (مراد وهبة: المعجم الفلسفي، (2007م)، الطبعة الخامسة، دار قباء الحديثة (مصر)، ص 648).

⁴ - سعيد إسماعيل صيني: قواعد أساسية في البحث العلمي، (1994م)، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة (لبنان)، ص 53.

⁵ - خالد حامد، منهجية البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، (2008م)، الطبعة الأولى، جسر للنشر والتوزيع (الجزائر)، ص 80.

⁶ - انظر: بنى طريف الخولي: مفهوم المنهج العلمي، (2020م)، دط، مؤسسة هنداوي (مصر)، ص 70.

⁷ - انظر: صلاح قنصوة: فلسفة العلم، (1981م)، دط، دار الثقافة للطباعة والنشر (مصر)، ص 186.

⁸ - حسن خميس الملخ: التفكير العلمي في النحو العربي، الاستقراء- التحليل- التفسير، (2002م)، الطبعة الأولى، دار الشروق (الأردن)، ص 21.

- ⁹ - يعني طريف الخولي: مفهوم المنهج العلمي، ص20.
- ¹⁰ - أحمد بدر: أصول البحث العلمي ومناهجه، (1996م)، الطبعة التاسعة، المكتبة الأكاديمية (مصر)، ص112.
- ¹¹ - محمد عبد العزيز عبد الدايم: النظرية اللغوية في التراث العربي، (2006م)، الطبعة الأولى، دار السلام (مصر)، ص15.
- ¹² - بول ديفيس وجوليان براون: الأوتار الفارقة نظرية كل شيء؟ ترجمة أدهم السنان، (1997م)، الطبعة الثانية، دار طلاس (سورية)، ص12.
- ¹³ - يعني طريف الخولي: مفهوم المنهج العلمي، ص12.
- ¹⁴ - عمار بوحوش ومحمد محمود الذنبيات: مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، (2022م)، الطبعة التاسعة، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر)، ص99.
- ¹⁵ - يعني طريف الخولي: مفهوم المنهج العلمي، ص40.
- ¹⁶ - حسن بن محمد حسن الأسمرى: النظريات العلمية الحديثة؛ مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها دراسة نقدية، (2012م)، الطبعة الأولى، مركز التأصيل للدراسات والبحوث (السعودية)، ص37.
- ¹⁷ - عبد الجليل مرتاض: التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، (2009م)، دط، دار هومة (الجزائر)، ص90.
- ¹⁸ - حسن بن محمد حسن الأسمرى: النظريات العلمية الحديثة؛ مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها دراسة نقدية، ص38.
- ¹⁹ - صلاح قنصوة: فلسفة العلم، ص193.
- ²⁰ - يعني طريف الخولي: مفهوم المنهج العلمي، ص13.
- ²¹ - عقيل حسين عقيل: فلسفة مناهج البحث العلمي، (1999م)، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي (مصر)، ص281.
- ²² - يعني طريف الخولي: مفهوم المنهج العلمي، ص19.
- ²³ - عبد الرزاق كيوط: تحليل وتقد النظريات الاقتصادية لتبرير الفائدة، مجلة أبحاث اقتصادية وإدارية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع20، ديسمبر 2016، ص61.
- ²⁴ - انظر: بوطالبي بن جدو: محاضرات في مادة النظريات التربوية لطلبة السنة الثانية ليسانس، علوم وتقنيات النشاطات البدنية والرياضية، السداسي 3، جامعة محمد ملين دباغين، سطيف، 2015/2016م، ص14 و16.
- ²⁵ - صلاح قنصوة: فلسفة العلم، ص182.
- ²⁶ - جلال الحاج عبد: نظرية الأوتار الفارقة، (دون تاريخ)، تاريخ الاقتباس: 15:20 06/08/2022 <https://books-library.net/free-1018989389>
- ²⁷ - صلاح قنصوة: فلسفة العلم، ص179.
- ²⁸ - علي جواد الطاهر: منهج البحث الأدبي، (1970م)، دط، مطبعة الغاني (العراق)، ص38.

قائمة المراجع:

أ- الكتب:

- 1- أحمد بدر: أصول البحث العلمي ومناهجه، (1996م)، الطبعة التاسعة، المكتبة الأكاديمية (مصر).

- 2- بول ديفيس وجوليان براون: الأوتار الفارقة نظرية كل شيء؟ ترجمة أدهم السان، (1997م)، الطبعة الثانية، دار طلاس (سورية).
- 3- حسن خميس الملح: التفكير العلمي في النحو العربي، الاستقراء- التحليل- التفسير، (2002م)، الطبعة الأولى، دار الشروق (الأردن).
- 4- حسن بن محمد حسن الأسمرى: النظريات العلمية الحديثة؛ مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها دراسة نقدية، (2012م)، الطبعة الأولى، مركز التأصيل للدراسات والبحوث (السعودية).
- 5- خالد حامد: منهجية البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، (2008م)، الطبعة الأولى، جسر للنشر والتوزيع (الجزائر).
- 6- سعيد إسماعيل صيني: قواعد أساسية في البحث العلمي، (1994م)، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة (لبنان).
- 7- صلاح قصوة: فلسفة العلم، (1981م)، دط، دار الثقافة للطباعة والنشر (مصر).
- 8- عبد الجليل مرتاض: التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، (2009م)، دط، دار هومة (الجزائر).
- 9- عقيل حسين عقيل: فلسفة مناهج البحث العلمي، (1999م)، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي (مصر).
- 10- علي جواد الطاهر: منهج البحث الأدبي، (1970م)، دط، مطبعة العاني (العراق).
- 11- عمار بوحوش ومحمد محمود الذنبيات: مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، (2022م)، الطبعة التاسعة، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر).
- 12- محمد عبد العزيز عبد البايم: النظرية اللغوية في التراث العربي، (2006م)، الطبعة الأولى، دار السلام (مصر).
- 13- مراد وهبة: المعجم الفلسفي، (2007م)، الطبعة الخامسة، دار قباء الحديثة (مصر).
- 14- يمني طريف الخولي: مفهوم المنهج العلمي، (2020م)، دط، مؤسسة هندواي (مصر).
- 15- Françoise Gérardin, Annick Dehais et autres: Le robert, dictionnaire pratique de la langue Française, (2006), France loisirs (Paris).

ب- المجلات:

- عبد الرزاق كيوط: تحليل ونقد النظريات الاقتصادية لتبرير الفائدة، مجلة أبحاث اقتصادية وإدارية، جامعة محمد خيضر (بسكرة)، العدد 20، ديسمبر 2016.

ت- المحاضرات:

- بوطالبي بن جدو: محاضرات في مادة النظريات التربوية لطلبة السنة الثانية ليسانس، فرع علوم وتقنيات النشاطات البدنية والرياضية، السداسي 3، جامعة محمد أمين دباغين، سطيف، 2015/2016م.

ث- مواقع على الانترنت:

- جلال الحاج عبد: نظرية الأوتار الفارقة، (دون تاريخ)، تاريخ الاقتباس: 2022/08/06 15:20
<https://books-library.net/free-018989389>
- ماثيو جيدير: منهجية البحث، ترجمة ملكة أبيض، (2021/05/23)، تاريخ الاقتباس: 2022/08/06 22:10
<https://archive.org/details/02129-pdf/mode/2up>